مجلة التكامل في بحوث العلوم الاجتماعية والرياضية
pISSN 2716-9391 / eISSN 2773-3971
المجلد: (9) العدد: (2) ديسمبر 2025
ص ص : 13 -34
DOI: https://doi.org/10.34118/ajsssr. v9i2.4388

المثقف وصناعة الوحدة العربية: قراءة في مشروع نديم البيطار

The Intellectual and the Crafting of Arab Unity: A Reading of Nadim Al-Bitar's Project

Said Karoui [1]

سعيد قروي [1] * المعهد العالي للحضارة الإسلامية، (تونس)، saidmoon@hotmail.fr

تاريخ الاستلام: 2025/10/12؛ تاريخ القبول: 11/26 /2025؛ تاريخ النشر: 2025/12/31

ملخص:

يُعتبر نديم البيطار (1924م- 2014م) أحد أبرز المفكرين العرب الذين سعوا لوضع رؤية شاملة لفهم الأزمات التي تواجه الأمة العربية، وإيجاد السبل لتجاوزها. واعتمد في مشروعه على مفهوم الإيديولوجيا الانقلابية كإطار فكري ومنهجي لإحداث تغييرات جذرية تساهم في التخلص من البُنى التقليدية التي تعيق التقدم. ولا تتحقق النهضة الحقيقية للأمة إلّا باعتماد الفكر الوحدوي الذي يُشكل قاعدة أساسية لبناء مشروع قومي، يعالج حالة التشرذم والانقسامات القائمة .

كما ركّز البيطار على الدور المحوري للمثقفين، الذين اعتبرهم القوة القادرة على تشكيل وعي جماعي، وتوجيهه نحو تحقيق أهداف النهضة. وربط بشكل واضح بين الفكر والممارسة من خلال دعوة النخب المثقفة لتحمل مسؤولية قيادة التحولات الكبرى. إذ أن مشروع البيطار يمثل جهدا فكريا متميزا، يجمع بين الثورة الفكرية والعمل القومي ودور المثقف في إحداث تغيير شامل، بهدف الوصول إلى التجديد الحضاري والتحرر للأمة العربية.

الكلمات المفتاحية: الإيديولوجيا الانقلابية، الفكر الوحدوي، المشروع القومي، النخب المثقّفة.

Abstract:

Nadim al-Bitar (1924-2014) is considered one of the most prominent Arab thinkers who sought to establish a comprehensive vision for understanding the crises facing the Arab nation and finding ways to overcome them. He relied on the concept of revolutionary ideology as a intellectual and methodological framework to bring about radical changes that contribute to overcoming the

* المؤلف المرسل: سعيد قروي ، البريد الالكتروني: saidmoon@hotmail.fr

traditional structures that hinder progress. The true renaissance of the nation can only be achieved by adopting a unifying thought that forms a fundamental basis for building a national project that addresses the current fragmentation and divisions.

Al-Bitar also focused on the pivotal role of intellectuals, whom he regarded as the force capable of shaping a collective awareness and directing it toward achieving the goals of revival. He clearly linked thought and practice through calling upon the educated elite to take responsibility for leading major transformations. Al-Bitar's project represents a distinguished intellectual effort that combines intellectual revolution, national work, and the role of the intellectual in bringing about comprehensive change, with the aim of achieving cultural renewal and liberation for the Arab nation.

Keywords: The Revolutionary Ideology; The Unification Thought; The National Project; The Educated Elites..

1. مقدمة :

تعتبر مسألة النهضة والتغيير في العالم العربي من أبرز التحديات التي واجهت المفكرين خلال القرن العشرين، وذلك نتيجة الأزمات البنيوية العميقة التي عصفت بالواقع العربي على المستويات السياسية والاجتماعية والفكرية. وفي هذا الإطار، برز المفكر نديم البيطار كواحد من أهم الأصوات الساعية إلى صياغة مشروع فكري متكامل يتجاوز حدود الطرح التقليدي، ليقدّم رؤية جديدة تهدف إلى التصدي للتحديات الداخلية والخارجية. واعتمد البيطار في هذا المشروع على قناعة أساسية بأن أي محاولة للنهوض لا يمكن أن ترتكز على إصلاحات جزئية أو مبادرات فردية، بل يجب أن تكون نتاج رؤية شاملة تعتمد على الإيديولوجيا الانقلابية كأداة للتغيير الجذري. وهذه الرؤية تسعى إلى تفكيك البنى السائدة وتقويض الأنماط التقليدية لإعادة تشكيل الوعي الجمعي بشكل يُمكّن المجتمع من مواجهة ظروفه المعقدة.

وتكمن أهمّيّة البحث في سعي البيطار في مشروعه الفكري إلى إعادة تشكيل وعي الإنسان العربي، من خلال تحريره من أسر الموروثات الجامدة، والدعوة إلى ممارسة نقدية شجاعة للعقل العربي التقليدي، وتأسيس فكر عقلاني حديث قادر على مجابهة تحديات العصر. وقد ركز البيطار على قضايا مركزية مثل الحرية، والعقلانية، والديمقراطية،

والهوية القومية، والعلاقة بين الفكر والدين، منطلقا من رؤية تعتبر أن أزمة العالم العربي ليست في الاستعمار الخارجي فقط، بل في التكوين الداخلي للعقل والثقافة والبنية الاجتماعية والسياسية.

ويهدف هذا البحث إلى دراسة مشروع البيطار باعتباره قد انبثق في فترة كانت النكسة النفسية والسياسية والفكرية تضرب الأمة العربية بقوة، عقب هزيمة 1967م، مما جعل الحاجة إلى فكر جديد ضرورة حيوية. وقد بلور البيطار رؤيته في مجموعة من المؤلفات والكتب، من خلال تحليل هذه القضايا التي شكلت اهتمام الباحث، ومتابعة أطروحاته ومناهجه، وإبراز ما يُميز مشروعه الفكري، في ضوء قراءة تحليلية نقدية.

من خلال الإجابة على هذه الأسئلة:

-1كيف أسست الإيديولوجيا الانقلابية حقلا خصبا لإنتاج مفاهيم النهضة والرقي؟.

-2هل حاد المثقف العربي عن المسار الوحدوي؟.

3- هل تحققت الوحدة العربية حسب البيطار؟.

2. الإيديولوجيا الانقلابية ركيزة الوحدة العربية:

نظرا لتداخل المصطلحات المتعلقة بالإيديولوجيا الانقلابية، كان لا بد من تقديم تفسير واضح للمصطلحين "الانقلاب" و"الثورة". إذ يعتقد البعض أن مفهوم الثورة يتطابق مع الإيديولوجيا الانقلابية، وأن الانقلاب يمكن أن يُعتبر ثورة بذاته. وهذا اللبس دفع نديم البيطار إلى تقديم توضيحات لكل مفهوم على حدة، وانتهى بتعريف شامل يبرز الصورة العامة للإيديولوجيا الانقلابية.

حيث يرى البيطار أن مصطلح "الثورة" يشير إلى موقف يتسم بالتمرد من جانب الفرد ضد أمر معين، دون أن يعني ذلك بالضرورة إحداث تغيير جوهري في طبيعة ذلك الأمر. فقد يكون التمرد ذاته تعبيرا عن نزعة محافظة تعارض تغييرات تُحدث تحولا في الوضع التقليدي القائم. وأن معيار نجاح الثورة لا يتمثل في تحقيق المثاليات والشعارات المرفوعة، بل في قدرة الثورة على إزالة النظام القديم وتجاوزه. وإذا تمكنت الثورة من ذلك، تُعدّ ناجحة وفعالة على الرغم ما يمكن أن يصاحبها من عنف جماعي أو قمع للحريات والحقوق.

وفي سياق النضال العربي الوحدوي الذي يرمي إلى إقامة دولة الوحدة، يرى البيطار أن تحقيق هذا الهدف يحتاج إلى إيديولوجيا وحدوية ثورية تمارس العنف الثوري بلا رحمة أو تردد اتجاه التوجهات التي تروج للنقد الديمقراطي التقليدي الذي يستند إلى حرية الفكر والتنظيم والتعبير عن الرأي المستقل.

أما بالنسبة لمفهوم الانقلاب، فقد رأى البيطار أنه يعني إحداث تحول جذري يعكس الحالة القائمة رأسا على عقب، بحيث تزول قواعد النظام السابق لصالح قواعد جديدة تماما تحل محلها. ويشير هذا التفسير إلى المعنى الأقرب للإيديولوجيا التاريخية المتكاملة التي تعد موضوع كتابه حول الإيديولوجيا الانقلابية. وقد اعتبر البيطار الهزيمة العربية والصراع العربي الإسرائيلي أمرا إيجابيا بشكل ما، إذ كشف عن الأسس التقليدية المبنية عليها المجتمعات العربية، وهو ما دفعه لطرح مشروعه حول الإيديولوجيا الانقلابية بوصفها الأداة الأكثر فعالية لتغيير الواقع التاريخي والاجتماعي للأمة العربية. (البيطار، الفعالية الثورية في النكبة، 1965، صفحة 61)

ويؤسس نديم البيطار لمفهوم الإيديولوجيا - (الإيديولوجيا: إذا ما عدنا إلى المدلول الاشتقاقي لكلمة الإيديولوجيا ذات الأصل اليوناني وألفينا أنّها تعني علم الأفكار. ومبتكر لفظ إيديولوجيا هو الفرنسي أنطوان ديستوت دو تراسي 1754م-1836م، لقد وردت أوّل ما وردت في كتابه "مذكرة دول ملكة التّفكير) (معن، 1988، الصفحات 158-159) - الانقلابية وهي"المفهوم العام الذي يحدد علاقة الإنسان بالمجتمع والتاريخ والحياة ويعين القوة والاتجاهات والسنن التي تسود هذه العلاقة". (البيطار، الإيديولوجيا الانقلابية: التاريخ كدورات أيديولوجية، 2000، صفحة 36) بوصفه حجر الأساس في أي مشروع للتحول الجذري في المجتمعات العربية.

ويرى البيطار أن إصلاح المجتمع العربي أو تطويره لا يمكن تحقيقه من خلال الاستناد إلى البنى القائمة، بل يتطلب تحولا جذريا عبر قطيعة شاملة مع البنية التقليدية السياسية، والاقتصادية والثقافية. ويؤكد أن هذه القطيعة لا يمكن أن تتحقق إلا بمساعدة إيديولوجيا انقلابية تمتلك القوة والوعي اللازمين لتأسيس واقع جديد ومغاير. والحضارة والتاريخ لا يمكن أن يدخلهما العرب إلا عبر مثل هذه الإيديولوجيا الثورية، حيث

يعتبر الإصلاح التقليدي مجرد إعادة تجديد للعجز الحالي، غير قادر على دفع المجتمع نحو المستقبل.

والإيديولوجيا التي يدعو إليها البيطار ليست مجرد تنظيرات أو أفكار مجردة، بل هي أدوات عملية تعتمد فهما علميا للتاريخ والواقع، وتنطلق من رؤية شاملة تتناول الإنسان والمجتمع والعالم بأكمله. لذلك، يشدد البيطار على أهمية بناء الإيديولوجيا على أساس علمي متين، بعيدا عن الاستناد إلى العواطف أو الأحاسيس، ما يعكس تصوره بضرورة التغيير العميق والجوهري لتحرير المجتمعات من قيودها الراهنة. و"الإيديولوجيا الانقلابية ليست صياغة وجدانية لشعور قومي، بل هي بناء مفهومي صلب، ينطلق من شروط الواقع ويتجه نحو تغييره الجذري". (البيطار، الإيديولوجيا الانقلابية، 1964، صفحة 42)

إذ يرى البيطار أن الثورات الكبرى عبر التاريخ لم تكن وليدة تراكمات ظرفية مجردة، بل كانت انعكاسا لإيديولوجيات انقلابية متجذرة في وعي الجماهير، وتدفعها إلى تجاوز النظم القائمة. حيث يُجري البيطار مقارنة بين الإيديولوجيات المحافظة التي تسعى لتبرير الواقع الراهن وتضفي طابع القداسة على السلطة القائمة، وبين الإيديولوجيات الانقلابية التي تنطلق من حاجة لتقويض هذا الواقع واستبداله بمنظومة جديدة.

في المقابل، ينبه البيطار إلى خطر تحول الإيديولوجيا إلى أداة دوغمائية مُحكمة أو أطر تسلطية قائمة على قمع الحريات. فهو لا ينادي بإيديولوجيا تخنق الحريات تحت ذريعة تحقيق المستقبل الأفضل، بل يدعو إلى تبني منهج إيديولوجي علمي عقلاني يُسهم في تنظيم الطاقات الاجتماعية لصالح مشروع تحرري حقيقي. ومن هذه الزاوية، يميز البيطار بين الإيديولوجيا الانقلابية الأصيلة التي تؤسس لتحرير الإنسان، وبين تلك المزيفة التي تعيد إنتاج مظاهر الاستبداد باسم الثورة.

وينطلق البيطار من مقاربة معقدة تضع في الاعتبار أن المجتمعات المتأخرة، وفي مقدمتها المجتمعات العربية، لن تتمكن من دخول الحداثة ورسم مسارها في التاريخ إلا عبر تصور ثوري متكامل. وهذا التصور لا ينبغي أن يقتصر على كونه مجرد خطاب دعائي، بل يجب أن يتجسد في هيئة منظومة فكرية تاريخية قادرة على توجيه الجهد الجماعي بطريقة فعالة. فالقيم الأساسية مثل الحرية، العدالة، العقل، والنهضة لا تُعطى للمجتمعات

مسبقا، وإنما تبرز كنتائج لحركة انقلابية واعية وممنهجة. و"إن حاضر الوجود العربي أصبح يفرض قيام الإنسان الانقلابي الذي ينزع عن نفسه وعن الآخرين العادات والقيم التي ما زالت تلازم العرب منذ قرون، فيدوس عليها ويقيم للعرب نموذجا إنسانيا جديدا يقلدون ويحقق في تقليده تجددهم الروحي والنفسي". (البيطار، الإيديولوجيا الانقلابية، 1964، صفحة 23)

وينبّه البيطار إلى أن الإيديولوجيا الانقلابية لا تعني العنف الأعمى أو الرفض المطلق، بل تعني تغيير البنية الفكرية والعقلية من الداخل، بما يشمل أنماط التفكير التقليدي وأساليب التعليم والنظر إلى الإنسان والمجتمع. بهذا المعنى، يصبح الانقلاب الفكري شرطا أوليا لأي مشروع تغييري، والانقلاب ليس أن تهاجم النظام من خارجه، بل أن تُفجّره من داخله عبر إحداث ثورة في العقول. وتؤدي الإيديولوجيا الانقلابية، وفق البيطار، دورا تأسيسيا في إحداث التوتر اللازم بين الواقع والممكن، بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، وهي بهذا يتحرّك التاريخ ويعاد تشكيله. لذلك فهي لا تتعامل مع الإنسان كمجرد تابع أو مستهلك للأفكار، بل كمشارك في صياغة مصيره. و"واجب الفكر الانقلابي الأول تحرر العقل من قبضة الأفكار والعقائد السابقة وتهديم هذه الأفكار والحقائق والحيلولة دونها ودون الاستمرار أو التأثير في الأجيال الصاعدة". (البيطار، الإيديولوجيا الانقلابية، 1964، صفحة 24)

بناء على ذلك، فإن الإيديولوجيا الانقلابية عند نديم البيطار ليست خيارا من بين عدة خيارات، بل هي الخيار الوحيد الممكن إذا ما أرادت الأمة العربية الخروج من مأزقها التاريخي والدخول إلى الزمن الفعلي. إنها، باختصار، مشروع وجود كامل، لا مجرد أداة سياسية ظرفية. حيث تُشكّل الإيديولوجيا الانقلابية حجر الأساس في مشروع البيطار الفكري والسياسي. وهو بناء فكري متماسك يسعى إلى تحويل الواقع العربي من حالة عجز تاريخي إلى فعل حضاري عقلاني. إذ يرفض نديم البيطار أي خطاب يُخفف من وطأة الوضع الراهن، ويؤكد على ضرورة الإطاحة الجذرية بأنظمة التخلف والتبعية والتقاليد. ويرى أن العالم العربي يعيش في مفارقة خطيرة؛ فهو يواجه تحديات التاريخ المعاصر بأدوات فكرية تعود إلى عصر الانحطاط. لذلك، لا يمكن للأمة أن تولد من جديد إلا من خلال أيديولوجيا تُسقط كل البنى البالية، سواء أكانت دينية أم سياسية أم معرفية. فالإيديولوجيا الانقلابية

هي في جوهرها رؤية فلسفية للفعل التاريخي، وليست مجرد خطة سياسية ارتجالية واعتباطية.

وينتقد البيطار أي إطار فكري يفترض إمكانية التغيير ضمن بنية تقليدية متداعية. ويرى أن ما سُمي تاريخيا إصلاحا لم يكن سوى محاولة لإصلاح نظام فاسد، بينما يتطلب الواقع العربي ثورة فكرية شاملة. ولذلك، يهاجم بشدة الخطاب الإصلاحي الذي يحاول الجمع بين التراث والحداثة دون أساس فكري متين. وبهذا المعنى، فإن الإيديولوجيا الانقلابية تُمثل عملية وعي جذري بالواقع، تهدف إلى إسقاط الأوهام والأساطير الكامنة وراء الانحطاط. وترتكز على أسس عقلانية مادية، لا على العاطفة أو النداءات القومية الواهية. ويتطلب التحول التاريخي وعيا علميا يربط بين البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ويُعيد تعريف الإنسان العربي كمشروع تاريخي، لا كذات ماضية. وكل"أيديولوجيا انقلابية تنبع من الواقع وترجع إليه فعندما يؤمن أتباعها بها ويرون فيها قوة أخلاقية يعتمدون عليها في حياتهم ويحرزون منها أفضل ميزاتهم، تؤثر فيهم، وفي الحياة التي تحيط بهم. فإذا كان العقل العلمي لا يقبل صحتها أو وجودها من ناحية تجريبية فعليه أن يذعن لها من ناحية سيكولوجية بسبب التحول الذي تجريه في نفسية أتباعها ومن ناحية اجتماعية تاريخية بسبب التحولات التي تحدث في المجتمع". (البيطار، الإيديولوجيا الانقلابية، 1964، صفحة 33)

من هنا، يدعو إلى البيطار إلى إيديولوجيا تحرر العقل من سلطة الماضي، وتفتح أمامه إمكانيات الفعل المستقبلي، عبر تحويل التاريخ العربي من تاريخ الخضوع إلى تاريخ الفعل. وتُعدّ القطيعة مع الفكر الديني التقليدي أحد أبرز ركائز الإيديولوجيا الانقلابية عند البيطار. وهو لا يستهدف الدين في ذاته، بل الصورة الذهنية التي أنتجها الخطاب الديني الموروث، الذي تحوّل إلى أداة لتخدير الوعي، وتكريس الانقياد للمؤسسات الفاشلة. إذ ينتقد البيطار ما يسميه الإسلام الشعبوي الذي يعيد إنتاج نفسية الخوف والانكفاء والانصياع، ويؤكد أن العقل الديني في صيغته الراهنة لا يمكن أن يكون حاملا لمشروع نهضوي، ما دام يشتغل بأدوات ما قبل علمية. لهذا، يطرح الإيديولوجيا الانقلابية كبديل للأنماط السائدة من الخطاب الديني، إذ "تحاول هذه الدراسة أن تعبر عن الناحية التهديمية التي تنطوي عليها كل أيديولوجيا انقلابية. قصدها الأول الهدم، هدم التقليد العقائدي الذي يسود الوجود

العربي، وهدم المفاهيم الروحية الفكرية العقائدية التي تعبر عن الحركة العربية الثورية". (البيطار، الإيديولوجيا الانقلابية، 1964، صفحة 48)

ويمتد مفهوم الانقلاب في الإيديولوجيا الانقلابية إلى السلطة والدولة والنظام السياسي العربي. فالنظام السياسي العربي، حسب البيطار، ليس إلا جهازا وظيفيا لاستمرار التخلف والهيمنة. إنه نظام لا تاريخي، لأنه يشتغل ضد منطق الفعل والتحول. ولهذا لا يكفي تغييره من الداخل، بل لا بد من تجاوزه كليا. وتحمل الإيديولوجيا الانقلابية بعدا سياسيا جذريا، يسعى إلى إعادة تشكيل الدولة على أسس عقلانية ديمقراطية وحدوية، تقوم على المشاركة الشعبية والعدالة التاريخية. ويربط البيطار بين الإيديولوجيا الانقلابية ومسألة الحرية بشكل وثيق. فالانقلاب الفكري لا معنى له دون أن يهدف إلى تحرير الإنسان من كل أشكال الاستلاب، سواء كانت سياسية أو معرفية أو دينية. ولهذا، فإن مشروعه لا ينفصل عن فكرة الإنسان الحرّ، الذي يصنع تاريخه بإرادته، ويتجاوز أوهام السكون والمصير المفروض. وتطرح الإيديولوجيا الانقلابية كذلك رؤية وحدوية للمجتمع العربي، فهي لا تتعامل مع الواقع كحقيقة نهائية، بل تفضحه كبنية مصطنعة. وترى أن التجزئة ليست قدرا، بل هي مشروع استعماري استمر بفعل التبعية الثقافية والسياسية. ولهذا، فهي تدعو إلى وحدة عقلية ونفسية قبل أن تكون وحدة سياسية. والوحدة في الإيديولوجيا الانقلابية ليست خطوة تقنية، بل فعل تحرري شامل، يُنهي الانقسام وينتج ذاتا تاريخية جماعية. و"السلوك الوحدوي العقلاني هو فقط السلوك الذي يستخدم وسائل ترتبط ارتباطا موضوعيا صحيحا بالقصد الذي يسعى إليه، والذي يستطيع التمييز بين الطريق التي يمكنها أن تقود إلى هذا القصد وبين التي تكون عاجزة عن هذا، فيتبنى الأولى وإن كانت تعني التضحية بمصالح ونجاحات مباشرة، ويرفض الثانية. ولكن وبما أن الواقع الموضوعي يتميز بموضوعية مستقلة عن إرادة الفرد فإن العقلانية تعني فكرا يعبر عن هذه الموضوعية والاتجاهات الواحدة التي تسودها. ومن أجل أن يكون هذا السلوك أو العمل عقلانيا، وجب عليه الاعتماد على نظرية علمية جامعة للتجارب التاريخية الوحدوية، تكشف له عن تلك الوسائل وهذه الطريق". (البيطار، من التجزئة إلى الوحدة (القوانين الأساسية لتجارب التاريخ الوحدوية)، 1979، صفحة 13)

لهذا، ترفض الإيديولوجيا الانقلابية المشاريع الجزئية، وتصر على بناء مشروع عربي عقلاني شامل. وتختم الإيديولوجيا الانقلابية أطروحتها بتوجيه نداء إلى المثقفين العرب، بصفتها الطبقة التي ينبغي أن تقود هذا التحول الجذري. إذ لا يقبل البيطار المثقف التقليدي، بل يُفترض أن يكون مثقفا عضويا، أي مثقفين مُدركين لبنى التخلف وقادرين على تطوير أالدوات النظرية والتطبيق. ويُحمّل النخبة مسؤولية كبيرة في استمرار الانحطاط، إذ لم ترضَ إلا بالخضوع للسلطات. لذا، فإن أحد شروط نجاح الفكر الثوري هو إعادة بناء النخبة العربية، لتصبح طليعة الثورة، لا خادمة للتراث. لذا، يرى نديم البيطار أن الفكر الثوري ليس دعوة للعاطفة أو غضبا ثوريا عابرا، بل منظومة فكرية متكاملة تُرسي مشروعا تاريخيا عقلانيا، يُسقط بُنى التخلف، ويُحوّل الإنسان العربي من البيئة المضطهدة إلى بيئة مبنية على قيم الحرية والعقل.

3. دور المثقف العربي الوحدوي

يسند نديم البيطار دورا محوريا للمثقفين في مشروع التغيير التاريخي، باعتبارهم الطليعة التي ستقود ثورة إيديولوجية وسياسية شاملة. فالمثقف، ليس مجرد ناقلا للمعرفة أو حاملا للأفكار، بل هو صانعا لرؤية تاريخية، ومنخرطا في النضال من أجل بناء الفرد والمجتمع. ويُعارض البيطار المفهوم النخبوي للمثقف، المكتفي بالملاحظة والتنظير. فالمثقف المطلوب في هذا العالم العربي المتأزم ليس المثقف الأكاديمي المنعزل، بل المثقف العضوي، كما دعا لهذا أنطونيو غرامشي (1891م-1937م)، فالمثقف المتصل بواقعه الاجتماعي والسياسي، والمنخرط في التغيير لا كمحلل خارجي، بل كفاعل تاريخي. وإذا فشل المثقف في الانخراط في الواقع السياسي والاجتماعي، فإنه يبقى صوتا أجوفا، لا صدى له إلا في الصالونات الثقافية المغلقة. ويُحمّل البيطار النخبة الفكرية في العالم العربي المسؤولية الرئيسية عن فشل النهضة. ويعتقد أن العديد من المثقفين قد تبنوا خطابا تجريديا اتجاه السلطة، وقد حادوا عن دورهم التاريخي. ولذلك فهو يدعوهم إلى استعادة المبادرة، ولكن "كي يمكن لهذه الأنتليجنسيا أن تقوم بدورها الوحدوي بشكل فعال خلاق فإنها تحتاج إلى نموذج فكري وحدوي عام يحل محل النماذج التي كانت حتى الآن نماذج تبشيرية وفي أحسن الحالات ميتافيزيقية أي نماذج فاشلة لا تستطيع قيادة العمل الوحدوي، بتوفير طاقاته وإمكاناته وتوجيهها ضمن استراتيجيا صحيحة نحو دولة الوحدة". (البيطار، المثقفون والثورة، 1987، صفحة 16)

ولا يكتفي البيطار بتحديد دور المثقف في الميدان السياسي فحسب، بل يرى أن مهمته أعمق؛ صياغة الإيديولوجيا التي تؤسس للقطيعة مع البنية السائدة. فالمثقف مطالب بإنتاج المفاهيم، بإعادة تعريف الحرية، والعدالة، والتاريخ، والإنسان. لكن البيطار يُحذر في الوقت ذاته من تحول المثقف إلى أداة في يد السلطة أو المعارضة، فينقلب إلى مُبرر للاستبداد أو مُنظّر للفوضى. فهو يُشدد على أن المثقف لا يجب أن يفقد استقلاليته النقدية. والمثقف الحقيقي هو من يمتلك الشجاعة الأخلاقية ليقول لا عندما يقول الجميع نعم، وهو من يصر على أن يكون مرآة الأمة لا مرآة السلطان. لهذا فإن المثقف هو الضمير الحيّ، وصوت المقموعين، وراية الوعي في زمن الرداءة. و"لهذا نجد أن الأشخاص المتعلمين ومنهم موظفي الحكومة يؤكدون بشكل نموذجي في المجتمعات التي تدخل التصنيع متأخرا على أهمية الأفكار كأداة في تحقيق التغيير الاجتماعي". **(Rinhart, 1978, p. 545)**

ويرتبط دور المثقف، في نظر البيطار، بمفهوم التحرر الفكري، فلا يمكن للثورة أن تخرج من رحم فكر مُستعبد، ولا من عقل مملوك. ومن ثمّ، فإن أوّل مهام المثقف هي تحرير ذاته من التبعية؛ تبعية للغرب، للتراث، أو للسلطة. ولهذا يُشدّد البيطار على استقلال العقل كمقدمة لكل مشروع تحرري، ويخلص إلى أن المثقفين هم الجسر بين الإمكان التاريخي والواقع المأزوم، وهم القادرون، إن قاموا بدورهم، على صياغة مشروع قومي عقلاني، حداثي، يخرج الأمة من مستنقع التبعية إلى أفق الفعل والتاريخ. ولذلك فإن أي مشروع نهضوي، بدون مثقفين ملتزمين، سيظل أجوفا، مفتقدا إلى نواته الصلبة. و"المثقف الذي يرتبط بالوضع الراهن لا يستطيع فصل نفسه عنه وعن قيمه وافتراضاته ومنطلقاته ومؤسساته وبالتالي لا يستطيع القيام بتحليل موضوعي علمي نقدي حوله أو ممارسة النقد الجذري له، إنه يكون ملتزما به بشكل مباشر أو غير مباشر ويجد عقلنة له في ضوء تبرير فكري يضفي عليه الشرعية الإيديولوجية". (البيطار، المثقفون والثورة، 1987، صفحة 85)

ويرى نديم البيطار أن أزمة العالم العربي لا تقتصر على بنيته السياسية أو الاقتصادية، بل تمتد لتشمل بنيته الفكرية التي لعب المثقفون دورا محوريا في تشكيلها، سواء من خلال تبريرها أو تثبيتها، بالرغم من ادعاءاتهم التغييرية. ومن هذا المنطلق، يشدد البيطار على أهمية دور المثقف في إحداث تغيير حقيقي، حيث يرى أن إصلاح العالم العربي

يبدأ حتما عبر تجديد العقلية الثقافية للمثقف العربي وأسلوبه في التعامل مع الواقع. فهو يرفض نموذج المثقف الذي يكتفي بإعادة إنتاج الخطاب المهيمن، سواء تحت شعارات الوطنية، الدين، أو الحداثة المبتورة.

ويعتبر البيطار أن المثقف العربي قد وقع في أسر ثلاثية مدمرة تتكون من الخطابة، الأيديولوجيا، والنخبوية، وهي الثلاثية التي جعلت نتاجه الفكري فاقدا للقيمة العملية، بعيدا عن الواقع، وغير قادر على التأثير في مسار الأمة التاريخي. لهذا يدعو البيطار إلى ضرورة انتقال المثقف من مجرد موصّف للواقع إلى منشئ لرؤية نقدية تاريخية، أي التحول من دور ناقل الأفكار إلى صانع وعي جماعي. كما يشير البيطار إلى أن أزمة الفكر العربي تنبع أساسا من غياب المشروع الثقافي الفعّال، وهو غياب لا يُعزى فقط إلى السلطة السياسية، بل يُرجع أيضا إلى عجز النخبة الثقافية عن وضع رؤية عقلانية موحدة. في نظره، المثقف الحقيقي هو من يتجاوز الاهتمام بذاته ليحمل مشروعا يواجه الجهل والتقسيم والخوف والهيمنة. فهو ليس مجرد مراقب خارجي، بل عنصر فاعل يسعى لإحداث تغيير جذري في واقع الأمة. و"الأنتليجنسيا تعطي ولاءها للأفكار والتصورات التي تتجاوز الواقع اليومي أو التجريبي، والوعي الذي تعبر عنه ويمثل الجانب النقدي، الخلاق، والتأملي في الفكر، إنه يفحص، يتأمل، يحلل، يتعجب، ينظر، ينتقد، يتصور، .. إنه جانب يمكن تسميته بالجانب الإضافي في الفكر، وينشغل نقديا بالغايات وبالقيم والمقاصد التي تتجاوز الحاجات العملية المباشرة ومصيره". (البيطار، المثقفون والثورة، 1987، صفحة 87)

ويُحمّل البيطار النخبة الثقافية العربية مسؤولية تاريخية في التخلّف، بسبب قبولها إما التبعية للمؤسسة السياسية، أو انكفائها في نرجسية نظرية لا تنتج تغييرا. ويعتبر أن المثقف العربي لم يلعب بعد دوره الجوهري كمحرّك تاريخي، أي كقوة فكرية تخلق وعيا جماعيا وحدويّا جديدا، بل بقي أسير الانتماءات الضيقة، أو الخطابات المستوردة الجاهزة، دون أن يمتلك شجاعة إنتاج فكر قومي عقلاني مستند إلى الواقع العربي وخصوصياته.

إن من أهم أدوار المثقف، حسب البيطار، أن يمارس النقد داخل مجتمعه لا عليه، وأن يكون ضميرا داخليا، لا جلادا خارجيا. ولهذا يرفض المثقف الواعظ أو المنفصل، ويؤكد على دور المثقف الفاعل، الذي لا يكتب فقط بل يبني، ولا ينقد فقط بل يقترح. إن ما يميّز المثقف في مشروع البيطار هو قدرته على تجاوز لحظته الآنية، والاشتغال على تشكيل وعي تاريخي قادر على التأسيس لحضارة قومية إنسانية. ويتأسس هذا الدور الإصلاحي

للمثقف، على عدة مستويات مترابطة؛ التشخيص العقلاني للواقع؛ حيث يجب على المثقف أن ينأى عن الأدلجة العاطفية أو التهويل، ويشتغل على قراءة الواقع العربي بعين ناقدة، تستند إلى أدوات علمية. وبناء المشروع القومي؛ حيث لا يرى البيطار جدوى في المثقف الذي لا ينخرط في مشروع قومي، فالفكر، مهما بلغ من التجريد، يفقد معناه إذا لم يكن في خدمة الأمة. ولهذا يدعو إلى المثقف المؤسِّس والمساهم في تأسيس الأفق القومي للعقل العربي. والناقد للسلطة؛ فالمثقف لا يكتفي بنقد النظام السياسي، بل عليه أن يواجه البنية الذهنية المتكلسة، والنظام الرمزي الذي يبرر الاستبداد. وهذا يستدعي تفكيك خطاب الهيمنة، سواء أكان دينيا أو علمانيا. وتحقيق وحدة الفكر والممارسة؛ حيث يرفض البيطار الازدواجية بين ما يكتبه المثقف وما يعيشه، ويعتبر أن هذه الازدواجية أحد أسباب الانفصام بين الفكر والواقع. فالمثقف يجب أن يكون شاهدا ومشاركا في آن واحد، حاملا مشروعا يعيش من أجله، ويجسّده في سلوكه، لا فقط في كتاباته. (البيطار، المثقفون والثورة، 1987، الصفحات 99-100-101-102-103-104-105)

يرى البيطار أن المثقف لا يُمكن أن يحقق دوره التاريخي إلّا إذا تصدّى لحالة التجزئة والانقسام، وسعى إلى تشكيل وعي قومي عقلاني يهدف إلى الوحدة. ويشدد على ضرورة أن يتولى المثقفون دور الطليعة الفكرية التي تقود مسيرة التحول، مطالبا إيّاهم بإحداث ثورة معرفية ترتكز على قيم العقل، النقد، والحرية. وفي نهاية طرحه حول دور المثقف، يدعو البيطار إلى إعادة الاعتبار للفكر باعتباره قوة فاعلة في التاريخ، وليس مجرد أداة نظرية جامدة، مشيرا إلى أن الأزمة لا تنحصر في السياسة وحدها، بل تشمل أيضا النخبة الفكرية التي لم تدرك بعد أن المعركة الأساسية هي معركة وعي. ويرى أن الخلاص القومي يعتمد على تبني فكر جديد يترافق مع ظهور نموذج جديد للمثقف يسهم في فتح آفاق التاريخ العربي نحو مشروع قومي إنساني وعقلاني حديث. ويحذر من أن استمرار المثقف العربي في الانعزال عن الشعب والوعي والمشروع سيؤدي به إلى نهايات قاتمة، سواء بالصمت أو السقوط في دائرة التبرير.

4. الوحدة العربية بين التحقق والاضمحلال:

تشكل الوحدة العربية عند نديم البيطار نواة المشروع النهضوي، والغاية التاريخية التي لا يكتمل أي تحرر قومي أو إيديولوجي دونها. فهي ليست مجرد حلم عاطفي أو

شعار إيديولوجي بل ضرورة وجودية ومصيرية، شرطها الأول الوعي، وشرطها الثاني الفعل التاريخي. وينظر البيطار إلى التجزئة العربية بوصفها أكبر مأساة عرفها العرب في العصر الحديث، ويعتبرها النتيجة المباشرة للاستعمار. ولهذا لا يعترف بالدولة الاستعمارية ككيان نهائي أو طبيعي، بل يراها لحظة مؤقتة من الانحطاط التاريخي. و"المجتمع العربي ليس أول مجتمع مجزأ يحاول توحيد أجزائه في دولة واحدة، والكيانات السياسية المستقلة التي يتبعثر فيها ليست أول كيانات مستقلة في التاريخ تريد تجاوز انفصالها في وحدة جديدة. هذه المجتمعات والكيانات التي كانت تحاول الاتحاد فتنجح أو تفشل، تشكل ظاهرة تاريخية دائمة، وبشكل يمكن فيه تحديد التاريخ، من هذه الزاوية، بأنه حركة كانت تحاول فيه المجتمعات المجزأة والكيانات السياسية المنفصلة تحقيق وحدات سياسية جديدة أكبر". (البيطار، من التجزئة إلى الوحدة (القوانين الأساسية لتجارب التاريخ الوحدوية)، 1979، الصفحات 9-10)

والوحدة بالنسبة للبيطار ليست مجرد وحدة ثقافية أو لغوية، بل هي وحدة سياسية تاريخية تستند إلى مشروع إيديولوجي مبني على العقلانية. يؤكد أن العروبة التي يسعى إليها لا ترتكز على الانغلاق العرقي أو تمجيد أمجاد الماضي، بل على رؤية مستقبلية تعتبر الإنسان العربي حاملا لمشروع تحرري تقدمي.

وإدراكا منه أن تحقيق الوحدة يحتاج إلى أساس مادي قوي، لا يكتفي البيطار بالشعارات بل ينادي بإنشاء مؤسسات وحدوية فعالة تشمل جيشا موحدا، وسياسة خارجية واحدة، واقتصادا مشتركا، ونظام تعليم موحد. ويعتبر أن التدرج في التوحيد عبر اتحادات بين الدول التي تملك قابلية لذلك هو السبيل الواقعي، بدلا من انتظار تحقيق الوحدة الكاملة دفعة واحدة. فالوحدة عند البيطار ليست قفزة طوباوية، بل عملية سياسية تبدأ بتكتلات حقيقية ملموسة، وليس بمجرد مؤتمرات وبيانات شكلية. كما يربط بوضوح بين تحقيق الوحدة والتغيير الإيديولوجي، حيث يؤكد أنه لا يمكن بناء إنسان عربي حر في ظل الإيديولوجيات السائدة، كما لا يمكن الوصول للوحدة إلا من خلال ثورة فكرية تجتث التفكير المتجزأ. و"معارضة عمل محرر بالذريعة القائلة بأنه يعني الجريمة والاستبداد لأنه دون جريمة واستبداد لا يمكن تحرير الإنسان، إننا لا نستطيع تجنب ذلك الديالكتيك الذي يذهب من الحرية إلى الحرية عن طريق الدكتاتورية والاستبداد". (**Beauvoir, 1962, p. 155**)

يرى نديم البيطار أن إخفاق محاولات الوحدة العربية في مراحلها السابقة يعود بشكل أساسي إلى غياب نهج عقلاني، حيث اعتمدت تلك المحاولات على الانفعالات أو التحالفات المؤقتة بدلا من بناء رؤية استراتيجية واضحة. ومن هذا المنطلق، يدعو إلى ضرورة تبني إيديولوجيا عقلانية وحدوية تحدد إطار العمل وتكون بمثابة خارطة طريق للمستقبل. فالوحدة العربية، وفق البيطار، لا تتحقق بالخطابات الرنانة، بل تتطلب خططا ومشروعات مدروسة، ولا يمكن أن تستند إلى المشاعر وحدها بل تحتاج إلى تحليل علمي للواقع العربي.

ويلقي البيطار جزءا من المسؤولية عن فشل المشروع الوحدوي على عاتق المثقفين العرب، الذين لم يقدموا إيديولوجيا بديلة تعالج مسألة التجزئة والقطرية، واكتفوا إما بالصمت أو بتأييد الوضع المجزأ. لذلك يدعوهم إلى صياغة فكر نقدي وحدوي يتخطى الخطاب الشعبي السطحي، ويؤسس لفهم جديد للوطن العربي بوصفه وحدة متكاملة تاريخيا واقتصاديا وثقافيا وسياسيا.

ويشدد البيطار في أكثر من مناسبة على أن الوحدة العربية ليست مجرد خيار ضمن خيارات أخرى، بل هي حتمية ضرورية يجب تحقيقها لتجنب الوقوع في دائرة التبعية. ويرى أن الوحدة العربية ليست أماني عاطفية أو طموحات سياسية سطحية، بل هي ضرورة تاريخية ومشروع وجودي يحقق استمرارية الأمّة.

والتجزئة السياسية القائمة في العالم العربي ليست وضعا طبيعيا، بل نتيجة عوامل تاريخية واجتماعية وسياسية معقدة أدّت إلى تمزّق الإنسان العربي وتعطيل مشروعه التاريخي. ويرى البيطار أن التغلب على هذه التجزئة يحتاج إلى طرح مفهوم النظرية الوحدوية، وهي رؤية عقلانية تهدف إلى تجاوز حالة التفكك وصولا إلى تحقيق الوحدة المنشودة.

وهذه النظرية، كما يوضح البيطار، ليست مجرد مقترحات سياسية بل هي مشروع معرفي شامل يُعيد صياغة المفاهيم الجوهرية المتعلقة بالهوية والسيادة والدولة والمجتمع، وتقوم على مبادئ تحررية عقلانية تشمل ثلاثة قوانين أساسية تدعم بناء المستقبل العربي الموحد؛ "وجود إقليم قاعدة يتركز عليه العمل الوحدوي ويرتبط به عبر المجتمع المجزأ أو الكيانات السياسية المدعو إلى الوحدة السلطة المشخصنة التي تستقطب ولا الشعب عبر الحدود الإقليمية و المخاطر الخارجية التي تولد ضغوطا قوية على الأقاليم المختلفة وتهددها

في حريتها كرامتها وبقاء نفسه هي القوانين الأساسية العامة التي تعيد ذاتها فيه وتكشف عنها تجارب التاريخ الوحدوية". (البيطار، من التجزئة إلى الوحدة (القوانين الأساسية لتجارب التاريخ الوحدوية)، 1979، صفحة 339)

ويرى نديم البيطار أن مسألة الوحدة العربية لا يمكن أن تُفهم خارج السياق التاريخي المقارن للتجارب الوحدوية الكبرى، مثل تجربة الولايات المتحدة الأميركية أو تجربة الوحدة الألمانية والإيطالية. فالانتقال من التجزئة إلى الوحدة تحكمه، في نظره، قوانين أساسية ترتبط بمرحلة تطور المجتمع وقوة الإقليم القاعدة الذي يقود مشروع الاندماج والوحدة. ومن ثمّ، فإن التجربة العربية ليست استثناء، بل تخضع بدورها لهذه القوانين التي تستوجب توفر الشروط السياسية والاجتماعية والاقتصادية اللازمة.

ويركز البيطار على فكرة أنّ الوحدة لا تُفرض من الخارج بل تنبع من الداخل، من خلال توفر مركز قوي قادر على استيعاب الأطراف وانصهار الخصوصيات الإقليمية ضمن مشروع قومي شامل. ويضرب مثالا على ذلك بدور مصر في الخمسينيات، معتبرا أن غياب هذا المركز يجعل أي مشروع وحدوي هشا أو مؤقتا، كما حصل في تجارب الوحدة السابقة بين سوريا ومصر. و"إن جميع الحركات الوحدوية معرضة للنكسات والهزائم غير أن وجود إقليم قاعدة يمثل فكرة الوحدة والارتباط بها يدعو إليها ويعكسها في سياساته ضروري للحد من الآثار النفسية السلبية التي تفرزها هذه النكسات والهزائم والتي يمكن لها أن تقتل هذه الفكرة". (البيطار، من التجزئة إلى الوحدة (القوانين الأساسية لتجارب التاريخ الوحدوية)، 1979، صفحة 125)

وسعى البيطار إلى تقديم معالجة علمية تُبرز أن الاقتصاد يشكّل رافعة للوحدة، لكنه ليس العامل الحاسم. إذ يذهب إلى أن العامل السياسي يسبق العامل الاقتصادي في التجارب الوحدوية، لكنه لا يُغني عن ضرورة بناء قاعدة اقتصادية مشتركة تُؤمّن مصالح الشعوب وتُعزز من تماسك الكيان الجديد، فالاندماج الاقتصادي، مثل إنشاء سوق عربية مشتركة، يُعتبر خطوة ضرورية لضمان استمرارية الوحدة السياسية وعدم تحولها إلى مجرد شعار إيديولوجي.

إضافة إلى ذلك، ينتقد البيطار النظرة المهترئة التي تكتفي برفع الشعارات القومية دون دراسة دقيقة لمتطلبات الانتقال من التجزئة إلى الوحدة. وهو يؤكد أن هذا الانتقال

ليس مجرد قرار سياسي، بل هو عملية تاريخية معقدة تتداخل فيها العناصر الفكرية، الاقتصادية، الاجتماعية، والجغرافية. لذا فإن المشروع الوحدوي يحتاج إلى قيادة سياسية مركزية تمتلك الإرادة والقدرة على فرض مشروعها الوحدوي، وإلا ظلّ المشروع أسير التجزئة.

من جهة أخرى، يربط البيطار بين الوحدة والقدرة على مواجهة التحديات الحضارية. فالتجزئة في نظره ليست مجرد حالة سياسية، بل هي معوّق حضاري يحول دون تمكين الأمة العربية من الدخول في العصر الحديث بقوة. أما الوحدة فهي شرط ضروري للنهضة العربية، لأنها تؤمّن القوة البشرية، والموارد الاقتصادية، والكتلة الجغرافية التي تسمح للأمة بأن تلعب دورا فاعلا في العالم. و"تدل تجارب التاريخ الوحدوية أن الإقليم القاعدة ضروري جدا، وهو شرط رئيسي لا يتقدم عليه أي شرط آخر في تحقيق وحدة مجتمع مجزأ أو دمج كيانات سياسية مستقلة. ليس هناك من ضعف يمكن أن يصيب حركة وحدوية أكثر من الضعف الذي ينتج عن وجود اتجاهات مختلفة تتركز في محاور مختلفة دون قاعدة رئيسية تهيمن عليها وتستقطبها. عند وجود محاور من هذا النوع تتبعثر قوى وطاقات الشعب الوحدوية وتستنزف ذاتها في التناقضات القائمة بينها، فتموت الوحدة نتيجة لذلك". (البيطار، من التجزئة إلى الوحدة (القوانين الأساسية لتجارب التاريخ الوحدوية)، 1979، الصفحات 120-121)

والوحدة العربية ليست خيارا ثانويا بل ضرورة تاريخية، إذ أن استمرار التجزئة يعني استمرار التبعية والتأخر. بينما تحقيق الوحدة وفق قوانين التاريخ – أي عبر تبلور مركز قوي، وانسجام اقتصادي، وقيادة سياسية حاسمة – يُمثل الطريق الوحيد لنهضة الأمة، ليضع أسس نظرية علمية للوحدة تتكامل فيها السياسة والاقتصاد والفكر القومي.

ويرى البيطار أن النظرية الوحدوية تمثل مرحلة مؤقتة نشأت بسبب تداخل المصالح بين الاستعمار والقوى الرجعية المحلية. ويشير إلى أن هذه الدول، في حال مواجهتها مشروعا وحدويا شاملا، تفتقر إلى عوامل الاستمرارية. تلك النظرية تقوم على منظور فكري مادي يرفض أي شكل من أشكال التبعية الثقافية أو السياسية، ويدعو إلى التحرر من القيود التقليدية عبر صياغة مشروع تاريخي جديد. هذا المشروع يسعى إلى تحقيق انسجام بين وحدة المصير والركائز الحضارية المشتركة، وبين التطور في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. والوحدة ليست خيارا بل ضرورة محتومة، وتتطلب إعادة تشكيل

وعي الإنسان العربي بالاعتماد على المنهج العلمي والتجريبي بعيدا عن أوهام الماضي. و"مراجعة التجارب بهذه الحركات الحديثة تدل بوضوح أنه بقدر ما يكون الشعور بالعجز أمام هذه المشاكل والأوضاع كبيرا وواسع الانتشار بقدر ما يكون الميل أو الوعي كبيرا إلى إحداث تغيير جذري في النظام القائم. وبقدر ما يكون كبيرا عدد المشاكل الحقيقية أو المزعومة التي لا تجد حلا لها عند إقامة السلطة الثورية الجديدة، بقدر ما يكون ميل وتبرير هذه السلطة للاستمرار لمدة طويلة من الوقت. واتساع الفرصة أمامها في إضفاء شرعية ثابتة على وجودها ولكن بشرط أن تكون قادرة على حل الكثير من هذه المشاكل وتحسين الوضع". (البيطار، المثقفون والثورة، 1987، صفحة 35) والنظرية الوحدوية يجب أن تكون عملية، تبدأ بالتكامل بين الأقطار ذات القواسم المشتركة، ومن ثم تتوسع تدريجيا لتشمل الأمة بأكملها. مع استبعاد الوحدات الزائفة أو التكتلات المؤقتة التي لا تمتلك رؤية موحدة وواضحة.

علاوة على ذلك، يُسلط البيطار الضوء على دور الوعي في ترسيخ النظرية الوحدوية، ويؤكد أن الثقافة الوطنية الضيقة أو الإيديولوجيات القبلية تُعيق عملية الوحدة. ولهذا، يدعو إلى ثقافة وحدوية تعزز التضامن وتعيد بناء العلاقة بين الإنسان العربي وأرضه ومصيره. ومن ثمّ، يطرح نديم البيطار في هذا الإطار رؤية متماسكة ومنهجية، تتجاوز المواقف السطحية أو الانفعالية تجاه الوحدة، وتعيد الاعتبار لها كمشروع علمي وعملي، يتطلب تطوير نظرية معرفية وسياسية واجتماعية متكاملة. وهذا يضع الوحدة العربية في مركز صراع فكري وسياسي مفتوح، حيث لا تُفهم فقط كهدف سياسي، بل كمنهج حياة. و"التاريخ الثوري الحديث يكشف بوضوح في تجاربه الثورية المختلفة بأن تخلف الأوضاع الموضوعية يعني الاعتماد الرئيسي على الوعي الثوري وأداته الإنتليجنسيا الأداة التي تعبر عنه وتنظمه في تحقيق المقاصد الثورية الجديدة وفي صنع التاريخ من جديد. هذا يعني بكلمة أخرى أن غياب وضعية وحدوية موضوعية يفرض حاليا التركيز على الإنتليجنسيا الوحدوية في مواجهة التجزئة والإقليمية وذلك إلى أن تتوفر وضعية وحدوية جديدة يمكن فيها للعمل الوحدوي السياسي أن يحقق إن صح استخدامه لها دولة الوحدة قفزات كبيرة نحوها". (البيطار، المثقفون والثورة، 1987، صفحة 65)

ولا تمثل التجزئة في فكر نديم البيطار مجرد معطى جغرافي أو إرثا من التوزيع الاستعماري، بل هي بنية فكرية واجتماعية عميقة، ترتبط بكل ما هو مضاد للتاريخ. إذ أنّ

الكيانات العربية الحالية ما هي إلا نتاج فعل استعماري مقصود، استند إلى تجزئة العقل والواقع العربيين، بحيث غدا الانتماء القطري بديلا عن الانتماء القومي، والمصلحة المحلية بديلا عن المشروع الحضاري الجماعي. ولهذا لا يكتفي البيطار بتشخيص التجزئة، بل يشتغل على تأسيس نظرية وحدوية عقلانية تقطع مع القطرية وتُعيد بناء الأمة على أسس جديدة.

وينظر البيطار إلى قضية التجزئة ليس فقط باعتبارها حالة سياسية، بل يتعامل معها كبنية ثقافية ونفسية أعمق، يرى أنها أثرت على نظرة الشعوب العربية بعضها إلى بعض، بنظرة يغلب عليها الريبة واللامبالاة. هذا التحول أدى إلى تهميش الحس القومي وتشويهه في كثير من الأحيان. حيث يؤكد البيطار أن الأنظمة العربية لعبت دورً رئيسيا في ترسيخ هذا الواقع عبر أدواتها المختلفة مثل الإعلام، والتربية، والقوانين، مما أدى إلى صياغة ذهنية قطرية تعزز الانغلاق وتجعل من تصور الانتماء إلى مشروع وحدوي مسألة شبه مستحيلة.

في مواجهة هذه التحديات، يقترح البيطار تبنّي نظرية وحدوية تستند إلى أسس علمية وعقلانية، بحيث تتجاوز الأطر العاطفية والتعبئة الخطابية التي كانت سائدة في المشاريع القومية السابقة. فالوحدة، وفقا لرؤيته، لا ينبغي أن تكون مجرد حلم أو طموح وجداني، بل ضرورة تاريخية أملتها التحولات الراهنة على المستوى العربي والدولي. وفي هذا السياق، يشدد البيطار على أهمية صياغة تصور نظري دقيق لمفهوم الوحدة يحدد شروط تحقيقها وآلياتها العملية الواقعية.

من هنا، يطرح البيطار مفهوم الاندماج الوحدوي، الذي يُعدّ أكثر عمقا من فكرة الاتحاد بين دول على المستوى الإداري أو السياسي. فالاندماج عنده يعني إعادة تشكيل الإنسان العربي في إطار وحدة نفسية وفكرية وتاريخية متكاملة، بعيدا عن البُنى الإدارية المؤقتة والهشة. وتسعى هذه الرؤية إلى خلق فضاء حضاري يمنح العرب القدرة على مواجهة التحديات بشكل جماعي وعلى قاعدة تأصيل الهوية المشتركة. و"في غياب هذه المعرفة العلمية كان العمل الوحدوي نوعا من العفوية التي تحولت إلى فخ يهدر الطاقات العربية عبثا ودون فائدة نتيجة لتحركاتها اللاعقلانية. السلوك الوحدوي العقلاني هو فقط السلوك الذي يستخدم وسائل ترتبط ارتباطا موضوعيا صحيحا بالقصد الذي يسعى إليه والذي

يستطيع التميز بين الطريق التي يمكنها أن تقود إلى هذا القصد وبين التي تكون عاجزة عن هذا؛ فيتبنى الأولى وإن كانت تعني التضحية بمصالح ونجاح مباشرة ويرفض الثانية. ولكن وبما أن الواقع الموضوعي يتميز بموضوعية مستقلة عن إرادة الفرد فإن العقلانية تعني فكرا يعبر عن هذه الموضوعية والاتجاهات الوحيدة التي تسودها. ومن أجل أن يكون هذا السلوك أو العمل عقلانيا وجب عليه الاعتماد على نظرية علمية جامعة لتجارب التاريخ الوحدوية، تكشف له عن تلك الوسائل وهذه الطريق". (البيطار، من التجزئة إلى الوحدة (القوانين الأساسية لتجارب التاريخ الوحدوية)، 1979، صفحة 13)

ويرى البيطار أن من شروط الوحدة أن يتجاوز العرب وهْم السيادة المطلقة للدولة القُطرية، لأن هذه السيادة ليست إلا غطاء لانعدام السيادة الحقيقية، وهي عائق بنيوي أمام أي مشروع وحدوي. فالدولة القطرية، في فكره، ليست دولة حديثة بالمفهوم الحقيقي، بل كيان سياسي يتبنى شكل الدولة دون مضمونها التاريخي، وهي عاجزة عن تأمين شروط التقدم والحرية والعدالة. ويتأسس مشروع الوحدة على ركيزتين أساسيتين: الأولى هي القطيعة مع البنى الفكرية والسياسية القديمة التي أسّست للتجزئة، والثانية هي بناء وعي قومي تاريخي يتجاوز الانتماءات العرقية، والقبلية، والدينية. وإن ما يمنع تحقق الوحدة، بحسب البيطار، ليس فقط القمع السياسي أو المصالح الاقتصادية الضيقة، بل غياب نظرية توحيدية عقلية تؤسس للانتماء القومي الجديد.

كما يربط البيطار الوحدة بالحرية والعدالة، ويؤكد أن لا وحدة ممكنة في ظل أنظمة قمعية أو علاقات اقتصادية تابعة. ولهذا يدعو إلى ثورة فكرية تقوم على نقد النظام العربي من جذوره، وإعادة بناء مشروع قومي على أساس ديمقراطي اجتماعي. فهو لا ينظر إلى الوحدة على أنها مجرد تكتل فوقي بين حكام، بل فعلا جماهيريا يتأسس من القاعدة، انطلاقا من إعادة تعريف المواطن العربي، ومنحه دورا مركزيا في تقرير مصيره. والنظرية الوحدوية لا يمكن أن تنجح دون تجاوز الخطاب الوجداني الذي طبع القومية العربية منذ بداياتها. فالشعارات قد تُنتج تعبئة لحظية، لكنها لا تؤسّس لوعي قومي مستدام. ولهذا فإن المشروع الوحدوي يجب أن يرتكز على مفهوم العقل التاريخي لا على الحنين إلى الماضي. فالوحدة هي إمكان مستقبلي مشروط بوجود وعي نقدي عميق، ولا تتناقض مع التنوّع الثقافي والديني والاجتماعي داخل الأمة العربية. بل على العكس، فإن الوحدة الحقيقية هي التي تسمح باحتضان هذا التعدد ضمن مشروع قومي عقلاني، يضمن الحقوق والحريات

للجميع. فالانقسامات الطائفية والقبلية ليست جوهرا من طبيعة الإنسان العربي، بل هي أعراض لانهيار المشروع القومي. ولهذا فإن النظرية الوحدوية لا تدعو إلى الانصهار والاضمحلال، بل إلى تجاوز التجزئة في إطار وحدة تعددية. و"الجماعات أو القبائل الكبيرة كانت تمثل القبائل الصغيرة في منطقة جغرافية معينة وتقيم سياسية يهيمن عليها قائد واحد في هذه الكيانات كانت الولاءات القبلية السابقة تتحول إلى ولاءات جديدة تتركز على القائد أو المملكة. ولغة القبيلة المنتصرة تفرض نفسها على اللغات الأخرى وتسود وتنمو لغة جديدة من تفاعل لغة المنتصر مع لغة أو لغات المغلوب. هكذا كانت تتسع رقعة الوحدة السياسية عن طريق الإمبراطورية أو الدولة الملكية التي كانت الشكل السياسي السائد عبر مراحل تاريخية كبيرة". (البيطار، من التجزئة إلى الوحدة (القوانين الأساسية لتجارب التاريخ الوحدوية)، 1979، صفحة 21)

ويرى البيطار أن المشروع الوحدوي لا يمكن تحقيقه إلا ضمن دولة عربية حديثة، ديمقراطية، عقلانية، لا تعيد إنتاج القمع باسم الوحدة، بل تجعل من الإنسان العربي غايتها ومركزها. فالوحدة يجب أن تكون أداة للتحرر، لا وسيلة للتسلط. ولهذا ينتقد بقوة التجارب الوحدوية الفاشلة التي قامت على أساس سلطوي بيروقراطي، لأنها لم تحترم مبدأ المشاركة الشعبية.

5. الخاتمة:

صفوة القول، إن استقراء المشروع الفكري لنديم البيطار يضعنا أمام رؤية فكرية شاملة تتجاوز التحليل السياسي البسيط والاعتيادي ليشمل التحولات التاريخية والاجتماعية والفكرية التي شهدها العالم العربي. حيث انطلق البيطار من قناعة جوهرية بأن تجاوز الأزمات البنيوية التي عصفت بالأمة العربية لا يمكن أن يتم عبر حلول جزئية أو إصلاحات سطحية، بل يتطلب صياغة رؤية متكاملة تقوم على الإيديولوجيا الانقلابية كأداة فكرية تهدف إلى تغيير واقع الجمود والتبعية، وتحقيق تحوّل جذري يقود المجتمعات العربية نحو الفاعلية والإبداع.

والإيديولوجيا ليست مجرد شعارات، بل إطار للتغيير التاريخي يجمع بين الفكر والممارسة ويعيد تشكيل علاقة الإنسان العربي بنفسه وتاريخه ومستقبله.

وفي هذا المضمار، ارتبط فكر البيطار ارتباطا متلازما بمفهوم الوحدة العربية الذي شكّل أساس فلسفته. فقد اعتبر أنّ التشرذم والانقسام يشكّلان الحاجز الأكبر أمام أي مشروع حضاري عربي. وأنّ الوحدة ليست مطلبا سياسيا مؤقتا، بل شرطا مصيريّا لنهضة الأمة وقدرتها على مجابهة التّحديات.

ولم يكن الفكر الوحدوي عند البيطار مجرد طموح عاطفي أو خطاب حماسي، بل استراتيجية عملية تهدف إلى توحيد الإمكانات البشرية والمادية في إطار قومي شامل، لتحقيق نهضة ترتكز على قيم العدالة والحرية والتنمية. وبهذا المعنى، كانت الوحدة عنده وسيلة للتحرر التاريخي للأمة.

أما فيما يتعلق بالفاعلين في هذا المشروع، فقد خص البيطار المثقفين بدور أساسي، إذ اعتبر أنهم النخبة المؤهلة لقيادة التحولات الكبرى من خلال بلورة خطاب نقدي تنويري يواجه الجمود والتقليد. ورأى أن المثقفين ليسوا مجرد مراقبين للأحداث، بل هم المحركون للوعي التاريخي وحاملوا الرسالة النهضوية. وقد أسند إليهم مهمة مزدوجة: إنتاج فكر نقدي قادر على تفكيك بنى الاستبداد والتخلف من جهة، والتفاعل مع الجماهير وتوجيهها نحو مشروع تحرري وحدوي من جهة أخرى. وهذه الرؤية تجسّد المثقّف كفاعل تاريخي مسؤول عن تحقيق النقلة الحضارية التي تفتح أفق التحرر والتجديد.

وما يميّز مشروع نديم البيطار هو انسجام عناصره الداخلية، حيث تنصهر الإيديولوجيا الانقلابية مع الفكر الوحدوي ودور المثقفين، وذلك ضمن رؤية موحّدة تسعى نحو التحرر والوحدة والنهضة. وصاغ البيطار تصورا عمليا يربط بين الفكر واعتلاء سلم النهضة، وبين القومية والإنسانية. ومن هذا المنطلق، لا تزال أفكاره تحتفظ براهنيّتها في ظل التحديات التي تواجه الأمة العربية اليوم، حيث تعيد طرح الأسئلة الكبرى حول دور المثقف في تحويل وعيه التاريخي إلى قوة تغييرية مؤثرة، وحول كيفية تحويل الإيديولوجيا إلى مشروع عملي يوحّد الجهود لإعادة صياغة ملامح المستقبل العربي.

لذلك يمكن القول إن البيطار أسّس رؤية فكرية متماسكة تستحق الاستعادة اليوم كإطار لفهم حاضر العالم العربي ومستقبله. ومن ثمّ، توجد دعوة ملحة للخروج من دوائر التشرذم والانغلاق، والسعي الدائم للانخراط في مشروع نهضوي وحدوي تقوده نخبة واعية بمسؤوليتها التاريخية، ومسلحة بوعي نقدي عميق وإرادة تغيير جذرية. وبهذه الطريقة

تبقى أفكار البيطار إسهاما مفتوحا أمام الأجيال القادمة، ومرجعا لإعادة التفكير في مسارات التغيير والتحرر، وبناء وحدة عربية تكون أساسا لنهضة حضارية شاملة.

6. قائمة المصادروالمراجع:

1. زيادة معن. (1988). الموسوعة الفلسفيّة العربيّة (الإصدار طبعة 1، المجلد مجلد 1). بيروت: دار الإنماء العربي.

2. نديم البيطار. (1964). الإيديولوجيا الانقلابية. بيروت: دار الطليعة.

3. نديم البيطار. (2000). الإيديولوجيا الانقلابية: التاريخ كدورات أيديولوجية (الإصدار ط3). بيروت: دار بيسان.

4. نديم البيطار. (1965). الفعالية الثورية في النكبة. بيروت: دار الاتحاد.

5. نديم البيطار. (1987). المثقفون والثورة (الإصدار ط1). بيروت: منشورات المجلس القومي للثقافة العربية.

6. نديم البيطار. (1979). من التجزئة إلى الوحدة (القوانين الأساسية لتجارب التاريخ الوحدوية) (الإصدار ط1). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

Bendix Rinhart. (1978). Kings or People. USA: University of California Press

Simone de Beauvoir. (1962). The Ethics of Ambiguity. New York: Citadel Press